مكانة الفلسفة
في المجتمع العربي المعاصر

إعـداد
حنان الغوات

إشـــــــــــــراف

أ.د/ محسن خضر
أستاذ أصول التربية
كلية التربية – جامعة عين شمس

أ.د/طلعت عبدالحميد
أستاذ أصول التربية
كلية التربية – جامعة عين شمس

٢٠١٧م

تمهيد :

كل إنسان يسكنه فيلسوف بالمعنى الأفلاطوني، ذلك أن الإنسان بما هو إنسان، لابد له من التفكير، والتفكير مطية الفلسفة،[١] وهو ما يؤكده (برادلي) : " افتح عينيك جيداً ، وتأمل طبيعة البشر – أكان يمكن أن يقلع الإنسان عن التفكير والتأمل؟ أن العالم بالنسبة له – ومشاركته فيه – موضوع طبيعي للتفكير ، وسوف يظل كذلك إن الميتافيزيقا ترتكز في قيامها على طبيعة البشر، على الرغبة في التفكير في الواقع ومحاولة فهمه".[٢]

ولما كان التفلسف ليس شيئاً آخر غير استخدام العقل، فإن الفلسفة تعد نشاطاً ينتمي إلى أسمى ما يتصف به الإنسان وهو التفكير[٣]، ومن ثمَّ فإن الإنسان حينما يعمل العقل فيما يأتي من أفعال في حياته، فإنه عندئذ يتفلسف، من حيث لا يدري[٤]، فالتفلسف – إذن – عنوان الوجود الإنساني ودلالة تميزه عن بقية الموجودات الأرضية الأخرى[٥]، ولئن كان الإنسان في أغلب الحالات لا يتوقف عن التفكير – ذلك النشاط الذهني الذي يتحرى الأسباب والنتائج – والتفكير مقدمة ضرورية للتأمل، فالإنسان إذا ما استغرق في التفكير اصبح متأملاً، والتأمل الخالص هو بداية النظر الفلسفي.[٦]البحث في المسائل الفلسفية – إذن – ليس أمراً مفروضاً على الإنسان من الخارج، وإنما هو نابع من طبيعة تكوين العقل البشري ذاته[٧]، ومن ثمَّ فإن النزعة إلى التفلسف ظاهرة طبيعية في الإنسان، ومرتبطة به من حيث هو إنسان، وهذا ما أكده (كانط، ت . ع. ١٨م) نفسه على الرغم من اعتقاده بأن الميتافيزيقيا مستحيلة باعتبارها معرفة، على عكس المعرفة العلمية الممكنة لنا.[٨]

ويبدو أن التفكير في درس الفلسفة، يقتضي التفكير و بشكل جدي في طبيعة الفلسفة نفسها ، كإطار مفاهيمي يتميز بالتجريد، ويوجه لفئة معينة من البشر ، بحيث تتطلب منهم مجموعة من المواصفات والشروط الخاصة في عالم متجدد باستمرار- بشر كما يرى

---

(١) أحمد فؤاد الأهواني : معاني الفلسفة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٧، ص ٩.

(٢) إمام عبدالفتاح إمام : مدخل إلى الفلسفة، دار الثقافة ، القاهرة، ١٩٨٦، ص ص ٩-١٠.

(٣) محمد كمال جعفر، و حسن عبداللطيف : في الفلسفة (مدخل وتاريخ)، مكتبة دار العروبة، الكويت، ١٩٨١، ص ٣٣.

(٤) زكريا إبراهيم : مبادئ الفلسفة والأخلاق ، مطبعة الفجال الجديدة، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٥.

(٥) محمد أحمد عبدالقادر : التفلسف الإسلامي (جذوره ومشكلاته)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٨، ص ٩.

(٦) محمد محمد قاسم : المدخل إلى الفلسفة ، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠١، ص ٢٩.

(٧) محمد حمدي زقزوق : تمهيد للفلسفة، دار المعارف ، الطبعة الخامسة، ١٩٩٤، ص ٤٢.

(٨) محمد ثابت الفندي : مع الفيلسوف، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠، ص ٨٢.

برغسون Bergson :" بشر يستغنون عن الطعام و الشراب لا ينامون و لا يحلمون ، بشر يولدون شيوخا ويموتون رضعا ، عالم كل شيء يسير فيه معكوسا و يستوي مقلوبا "[9]- ، هذا التجدد المستمر الذي يطال العالم بأسره ، بتحدياته المتعددة ، اقتصاديا اجتماعيا ، سياسيا ، ثقافيا ،و فكريا .. و خاصة مع ما يعرفه العالم حاليا من حالات الإرهاب و القتل و الترهيب ،خصوصا مع تفشي الفكر الجهادي التكفيري مع الدواعش و بوكوحرام ... و ما تنتجه من عمليات دموية، أفقدت الإنسان إنسانيته ، بل و حرمته من أهم حقوقه الطبيعية ، وهي الحق في الحياة.

إشكالية البحث :

حملت مؤخرا المجتمعات العربية نذر انتكاسة لمجتمع الحداثة،فانتشرت نزعات التعصب و الطائفية و التكفير،مما هدد انجازات العرب منذ دولة الإستقلال،وخاصة في ظل سياسة الفوضى الخلاقة،التي أشاعت حالة التفتت و الإنقسام،مما أشعل السؤال عن نوع العقل العربي،و كيف ندعم عقلانية مجتمعاتنا في ظل حالة الهمجية و الأهلية العربية السائدة، هذه الممارسات إذا ما تم إخضاعها للمنطق العقلي، فلن يكون لها وجود، فكلها ممارسات نابعة من الإيمان بثوابت، مرسخة بذلك الدغمائية و التعصب لمجموعة من الموروثات على اختلاف أصنافها، سواء منها الدينية أو المجتمعية، أو القومية... في ظل هذه الوضعية التي تعرفها المجتمعات العربية، يطرح سؤال متعلق بطبيعة الدرس الفلسفي وقدرته على تجاوز هذه الوضعية، وذلك من خلال طرح السؤال الإشكالي الأتي :

- ما مكانة الفلسفة في علاقتها بتحديث العقل العربي ؟

ويتفرع عن هذا السؤال مجموعة من الأسئلة على الشكل الآتي :

- ما تجليات الحداثة في الفلسفة؟
- ما مكانة الفلسفة في الفكر العربي ؟

ويمكن تضمين الأهمية التي يكتسيها هذا البحث في النقاط الآتية :

- انتشار التفكير الخرافي في الوطن العربي عامة و المجتمع المغربي على الخصوص ،يثبت الحاجة فعلا للتفكير الفلسفي كبديل.
- تمثل الدراسة مسألة التفكير في التفكير ،أو ما وراء التفكير

-تتناول الدراسة قضية تدريس مادة الفلسفة بالمغرب ،و الذي يعد من القضايا الجديرة بالبحث لأنها تقع ضمن الأصول الاجتماعية التنموية، والسياسية للتربية.

[9]H. Bergson. « la pensée et le mouvant ».2 ED PUE .Paris 1941 .introduction

أما عن أهداف البحث فيمكن حصرها فيما يلي:

- تطوير استراتيجية بديلة لتدريس الفلسفة في المغرب في ضوء عنصر الحداثة .

١- تجليات الحداثة في الفلسفة :

تقوم الفلسفة بدور مهم في تكوين العقل الحداثي حيث تُعد الفلسفة مسألة العقل والعقلانية النقدية من المسائل الهامة التي صاغتها الفلسفة باعتبارها المنهجية المعرفية التي ينطلق الفيلسوف منها لتأسيس مذهبه الفلسفي، وقد ظلت هذه المنهجية المعرفية ميزة أو أهم ما يتميز به الخطاب الفلسفي طوال تاريخه، ذلك أن تاريخ الفلسفة يعد إلى حد كبير تاريخاً للعقل والعقلانية، والعقلانية النقدية.[١٠] بدأ من سقراط، فليس الغرض من تناولنا لتاريخ تطور مفهوم الحداثة هو تحليل فحوى الخطاب الفلسفي فحسب، وإنما التركيز على دور الفلسفة في بناء العقل الحداثي، بالإضافة إلى إبراز فاعلية العقل الحداثي ونشاطه النقدي في التراث الفلسفي من جهة وفي التغيير المجتمعي من جهة ثانية

وخير مثال لذلك الديكارتية، حيث كان المبدأ الذي أعلنه ديكارت : "أنا أفكر، إذن أنا موجود ....Cogito, Ergo, sum ، يمثل حقيقة مباشرة أو واضحة بذاتها"[١١] فما الإنسان لديه إلا شيء مفكر[١٢] ، وما الشيء المفكر إلا شيء يشك، ويفهم، ويتصور ، ويثبت ، وينفي، ويريد، ولا يريد، ويتخيل، ويحس أيضاً[١٣]، فكل هذه الظواهر هي من فعل العقل.

ومهما يكن الأمر ، فإن عدم الفصل بين وجود المفكر وفكره : " أنا أفكر إذن أنا موجود ، تدل على أن الوجود العام، والواقع، والوجود الفعلي للأنا ينكشف له على نحو مباشر من خلال الوعي[١٤]، وهذا الترابط أو عدم إمكان الفصل بين الفكر والوجود ، هي أول معرفة مطلقة وأكثرها يقيناً، ولا هي متوسطة ولا مبرهنة،[١٥] ولكن ديكارت وهو ذلك الموجود المفكر، يجهل في لحظة إثبات وجوده ما إذا كان هناك عالم خارج فكره، وكل ما

---

(١٠) عباس محمد سليمان : مدخل إلى الفلسفة في القرن الحادي والعشرين، القاهرة، ٢٠١٥، ص ٢٠٥.

(١١) رنيه ديكارت : التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة وتقديم وتعليق : د./ عثمان أمين، مكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٥٣.

(١٢) هيجل : موسوعة العلوم الفلسفية، ترجمة وتقديم وتعليق د/ إمام عبدالفتاح امام، دار التنوير، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٩٦.

(١٣) رينيه ديكارت : مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم، مرجع سابق، ص ٧٥.

(١٤) رينيه ديكارت : مبادئ الفلسفة، ترجمة د./ عثمان أمين، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٩٣.

(١٥) هيجل : مرجع سابق، ص ٢٠٧.

يعلمه الآن علم اليقين هو أنه موجود لأنه يفكر، ولا يعلم شيئاً غير هذا.[١٦]ولم تقف عقلانية ديكارت عند هذا الحد بل تابع تأملاته ليقصي كل إمكان شك عن يقين ومعرفته تلك[١٧]، فالتمس لفكره نقطة استناد خارج الفكر نفسه، وهذه النقطة هي مصدر كل وجود، لا بل هي الضامن النهائي لكل حقيقة[١٨] فأنا أفكر في الله ، إذن، الله موجود ليس للبرهان عن وجود الله بفعل الفكر، بل للتأكيد على أن اليقين مؤسس في صدق الكائن الذي لا يمكن أن يخدع ، أي في وعي استحالة الشك فيما يؤسس في الحقيقة الواضحة والمميزة بذاتها. [١٩] وإذا كانت الحداثة تتنوع من مجتمع لأخر، ومن عصر لأخر، فإن الفلسفة ومنذ نشأتها وباعتبارها محايثة للمجتمع، هي تسعى باستمرار لإرساء دعائم العقل الحداثي وإن لم يكن قد نشأ بشكل مؤسس إلا مع النهضة الأوروبية، وعصر الأنوار، فإنه يمكن القول إن الحداثة كانت مع ظهور الإنسان، و بدأت تتخذ أشكالا ومظاهر متعددة بتعدد العصر والمجتمع.

وفي هذا السياق نستحضر الدور الرئيس و المحوري الذي سعت الفلسفة عبر تاريخها أن تلعبه في علاقته بالعقل الحداثي، من خلال العناصر الاتية:

- **أثينا** : سنبدأ بقصة أثينا في بداية ظهور الفكر الفلسفي، حيث يصف "ويل ديورانت" في كتابه قصة الفلسفة المناخ الفكري لأثينا بعد الحرب الفارسية اليونانية بالقول "تحولت أثينا بعد الحرب الفارسية إلى سوق كبيرة وميناء ومكان اجتماع للكثير من الرجال، من مختلف الأجناس والعادات والمذاهب، وحملت خلافاتهم واتصالاتهم ومنافساتهم إلى أتينا التحليل والفكر والمقارنة... فعندما يقدم لنا ألف عقيدة، يساورنا الشك في جميع هذه العقائد...وربما كان تجار أثينا أول من أظهروا شكهم وريبتهم، فقد رأوا الكثير في أسفارهم وتعذر عليهم الاعتقاد بهذا الكثير، كما أن ميل التجار العام الى تقسيم جميع الناس الى حمقى أو أوغاد، جعلهم يميلون إلى استجواب كل عقيدة ومذهب".٢٠ هذا الشك لم يقتصر فقط على التجار اليونان بل وأيضا المعمرين الأيونيين،الذين كان طاليس واحدا منهم،إن هذا الحوار المعرفي والفكري بين

---

(١٦) رينية ديكارت : مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم، ترجمة وتقديم وتعليق : د./ جميل صليبا، المكتبة الشرقية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٠، ص ٤١.

(١٧) غانم هنا : النزعة العقلية وأثرها في حركة التنوير،مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد (٣)، المجلد (٢٩)، الكويت، ٢٠٠١، ص ١٠.

(١٨) ديكارت : مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم، مرجع سابق، ص ٤٢.

(١٩) غانم هنا : النزعة العقلية وأثرها في حركة التنوير، مرجع سابق، ص ص ١٠-١١.

٢٠- ول ديورانت، قصة الفلسفة. ترجمة د.فتح الله محمد المشعشع، ط٢،(بيروت: منشورات مكتبة المعارف، ١٩٨٨م)، ص٧.

معتقدات الأثينيين والثقافات الأخرى ولد الشك، الذي سرعان ما سيتحول إلى استجواب وفحص للمعارف والمعتقدات كتفكير نقدي تجاه معارف الذات ومسلماتها، فبفضل هذا التفكير النقدي سيحدث الانتقال التاريخي من الميتوس إلى اللوغوس، من العقل و التفكير الأسطورة إلى الفلسفة.

- **سقراط :** تجمع معظم أدبيات التفكير الفلسفي على أن سقراط يعد الفيلسوف الذي رسخ بطريقته الحوارية لمنهج التفكير النقدي كأحد مظاهر العقل الحداثي، عبر مساءلة منهجية لمعارف ومعتقدات الآخرين، ليستنتج عبر حواره التوليدي أن الناس لا يستطيعون تبرير معارفهم تبريرا عقليا ومنطقيا، فالناس في الغالب يتبنون معارف غير واضحة، قائمة على حجج متناقضة أوغير ملائمة في غالب الأحيان. لقد أسس سقراط لأهمية طرح الأسئلة العميقة التي تغوص وتحقق في طبيعة الأفكار والمعتقدات والاستدلالات قبل قبولها أو تبنيها.

لقد أرسى سقراط بمنهجه النقدي التوليدي لتقليد التفكير النقدي، عبر المساءلة التأملية للمعتقدات والافتراضات الجمعية، وذلك عبر البحث عن الحجج، وفحص الاستدلالات والافتراضات عن قرب، وتحليل المفاهيم الأساسية والمركزية، و تتبع مسار تشكلها سواء على المستوى النظري أو العملي. ويعد أسلوب ومنهج سقراط في التساؤل والمساءلة كما يرى "بول ريشارد" أشهر الاستراتيجيات الحديثة في تعليم التفكير النقدي" التساؤل السقراطي"، هذه الاستراتيجة التي تلح على أهمية الوضوح والتناسق والانسجام المنطقي [٢١].

على نفس النهج النقدي سار أفلاطون (مدون أفكار سقراط) واليونانيين الريبيين (الشكاك)، جميعهم أكدوا على أن الأشياء في الغالب تكون مختلفة عما تبدو لنا عليه في العادة، وفقط العقول المدربة والمؤهلة هي القادرة على الغوص عميقا لاستكناه حقيقة أمور الحياة.

- **أرسطو:** كانت مساهمة أرسطو في تطور التفكير النقدي، محدد العقل الحداثي كبيرة للغاية، فقد وضع قواعد المنطق الصوري، بين بواسطتها أن خطأ الاستدلالات أو صحتها مبني على صور الاستدلال أو القياس، كما وقف في كتاب السفسطة على مختلف أشكال ومغالطات التفكير السفسطائي والتي قد تشوب الاستدلال والقياس، حيث قام بتصنيف هذه المغالطات وبين أسباب علتها،

[٢١]- ريشارد. و. بول، ليندا إيلدر، التفكير النقدي، ترجمة د.عمرو سلام و د.أحمد حالي، (لندن: E-Kutub Ltd، ٢٠١٦)، ص : ٢٨١.

فالمنطق عند أرسطو هو علم القواعد التي تجنّب الإنسان الوقوع في الخطأ في عمليّة التفكير، وإرشاده إلى الصواب[٢٢].

❖ **عصر النهضة :** بعد أفول الحضارة اليونانية وسيادة التفكير الغيبي وتعطيل العقل، سيصير من الصعب العثور على أصوات نقدية بالمعنى العميق لمفهوم العقل الحداثي ، حيث لم يتم قبول مفهوم مساءلة المعتقدات إلا بعد مرور ١٤٠٠ سنة بعد سقراط- وان ظل ذلك محصورا فقط في الجامعة، وفقط تحت إشراف السلطات التي تشرف عليها. بالطبع، في عصر النهضة (خلال القرنين ١٥ و ١٦ عشر)، بدأ عدد من المفكرين في أوروبا في التفكير بشكل نقدي حول الدين(جون ويكليف في انجلترا ومارتن لوثر بألمانيا ومن بعدهم بيير بايل بفرنسا...) والفن (ليوناردو دا فينشي ومايكل آنجلو...) والمجتمع والقانون والدولة وطبيعة الانسان والحرية (السير توماس مور، وتوماس هوبز بإنجلترا، ماكيافيلي بإيطايا، دسيدريوس إراسموس بهولندا و جوزيف جوستوس سكالجر بفرنسا...) لقد انطلقوا من فرضية مفادها أن معظم مجالات الحياة البشرية كانت في الواقع ذات طبيعة تحليلية ونقدية. لقد ساروا على خطى افكار المفكرين اليونانيين القدماء.[٢٣]

- **فرنسيس بيكون Francis Bacon** (انجلترا ١٦٢٦-١٥٦١) لقد كانت أعمال "فرنسس بيكون" -مؤسس العلم الحديث- محاولة طموحة لنقد وإصلاح المعرفة والعلوم، فقد كان مشروعه الكبير"الإحياء العظيم Instauration Magna" وتحديدا مؤلفه " الأورجانون الجديد Novum organum" كما يوحي بذلك الإسم خطوة هامة لتجاوز "أورغانون" أرسطو الذي كان بمثابة البراديغم النظري للمعرفة المعتمد في ذلك الوقت، " لقد سعى بيكون إلى إصلاح العلوم بالإعتماد على الطريقة الإستقرائية دون الطريقة القياسية"[٢٤].

ومن أهم المساهمات الكبيرة التي قا م بها "فرنسيس بيكون" في تطوير العقل الحداثي كانت تحليله الواضح للطريقة التي يسقط فيها العقل البشري، في حالته الطبيعية، في شرك الجهل، والأفكار المسبقة، وخداع النفس، والمصالح الخاصة. لقد اعترف –بيكون- صراحة أنه لا ينبغي ترك العقل عرضة لميوله الطبيعية. ففي كتابه النهوض بالتعلم " The advancement of learning" ، دافع عن أهمية الدراسة التجريبية للعالم. ولقد وضع

---

[٢٢]- انظر منطق أرسطو: تحقيق وتقديم عبد الرحمان بدوي، ط١،بيروت، دار القلم، ١٩٨٠، ص :٧٧٣.

[٢٣]- انظر ريشارد. و. بول، مرجع سابق، ص ٢٨١.

[٢٤]- د.حبيب الشاروني، فلسفة فرنسيس بيكون، ط١، الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨١ ، ص ١٢.

الأساس للعلم الحديث مع تأكيده على عمليات وسيرورة جمع المعلومات، كما أثار الانتباه أيضا إلى حقيقة أن معظم الناس، إذا ما تركوا لشأنهم، يطورون عادات تفكير سيئة (والتي سماها ب"الأوثان" " idols") أدت بهم إلى الاعتقاد بما ليس جديرا بالاعتقاد. ولقد لفت الانتباه ألى "أوثان القبيلة" Idols of the tribe" (أي الطرق التي من خلالها يميل عقلنا بشكل طبيعي لخداع نفسه) و"أوثان الكهف" "Idols of the cave"(أو الميل إلى رؤية الأشياء من منظورنا الفردي الخاص بنا، والمشوه في كثير من الأحيان)، و"أوثان السوق" " Idols of the market place" (أي الطرق التي من خلالها نسيء استخدام المفاهيم في علاقاتنا بالأخرين)، و"أوثان المسرح"Idols of the theater"(أي ميلنا لنصبح محاصرين في النظم التقليدية والدوغمانية للفكر)[٢٥]. وهي كلها صور مختلفة للمجتمع اللاعقلاني، بالإضافة إلى أخرى قد تحدث عنها الدكتور التربوي حامد عمار ....

إن هذا التحليل النقدي للأوهام التي تدفع العقل البشري للانزياح عن الحقيقة والموضوعية دفعت الكثير من خبراء التفكير النقدي إلى اعتبار هذا الكتاب "واحدا من أولى النصوص التي كتبت في التفكير النقدي، على اعتبار ان مواضيعه كانت الى حد بعيد بمثابة المواضيع التقليدية للتفكير النقدي "[٢٦].

- **رينيه ديكارت R. Descarte" ١٥٩٦-١٦٥٠"** (فرنسا) بعد نصف قرن من "فرنسيس بيكون"، بدأ "ديكارت" مؤسس الفلسفة الحديثة ما يمكن أن يطلق عليه المشروع الثاني لنقد الأفكار والمعارف التقليدية السائدة، وقد شكلت مؤلفاته: مقال في المنهج(١٦٣٧م) و تأملات في الفلسفة الأولى(١٦٤١م)و مبادئ الفلسفة (١٦٤٤م) وقواعد لتوجيه التفكير، عرضا وتفصيلا لمنهج ومقتضيات منهج الشك الديكارتي، حيث جاء هذا المنهج كنقد وتجاوز لعقم المنهج الأرسطي في انتاج المعرفة، وكنقد لمناهج وبرامج المعرفة والمدارس السكولائية في ذلك الوقت.

لقد أكد "ديكارت" على ضرورة الاحتراس قبل قبول المعارف واعتبارها كحقائق بدون شك ولا تمحيص فكما يقول" إن أحكاما كثيرة في إطلاقها تمنعنا من الوصول إلى الحقيقة،و تتشبث بنفوسنا تشبثا يلوح لنا معه أنه من المحال أن نتخلص منها ما لم نشرع في الشك ..."[٢٧] ، وهكذا فهو يحث على ضرورة وجود تدريب منهجي خاص للعقل لإرشاده أثناء عملية التفكير. ويعني ديكارت بالمنهج " قواعد وثيقة سهلة تمنع مراعاتها

[٢٥]- د.حبيب الشاروني: فلسفة فرنسيس بيكون. ص ص: ١٢٣-١٢٧.

[٢٦]- ريشارد. و. بول، ليندا إيلدر: التفكير النقدي. ص:٢٨٢.

[٢٧]- ديكارت: مبادئ الفلسفة، ترجمة عثمان أمين ، دار الثقافة والنشر – القاهرة. ص : ٥٣.

الدقيقة من أن يؤخذ الباطل أنه حق"[٢٨] وهذه القواعد هي البداهة، التحليل، التأليف أو التركيب، الاستقراء التام أو المراجعة، مما يؤكد على ضرورة مساءلة المعارف، والتشكيك فيها، واختبارها قبل الحكم بصحتها ويقينها.

إن التفكير النقدي لفلاسفة وعلماء ومفكري عصر النهضة مهد الطريق لظهور مفكرين وفلاسفة جعلوا من العقل النقدي مفتاحا لتحصيل المعرفة والتعلم "فقد كانت أعمال "هوبز" و"لوك" انعكاسا لهذا الزخم النقدي لمفكري عصر النهضة، فلم يقبل كلاهما الصورة التقليدية للأشياء التي كانت تعتبر "عادية" في ثقافتهما على أنها أشياء عقلانية بالضرورة. لقد اعتمد "هوبز" وجهة نظر طبيعية naturalistic view للعالم حيث إن كل شيء يجب أن يتم شرحه عن طريق الأدلة والاستدلال. ودافع لوك عن تحليل سليم للحياة اليومية والفكر. ولقد وضع الأساس النظري للتفكير النقدي حول حقوق الإنسان الأساس، ومسؤوليات جميع الحكومات في أن تخضع للنقد المنطقي للمواطنين النبهاء."[٢٩] كانت هذه الروح النقدية النسمات الأولى لبزوغ عصر جديد، عصر الأنوار ، عصر النقد بامتياز.

- **عصر الأنوار والتنوير :** في إجابته الشهيرة حول سؤال ما التنوير، يجيب كانط "التنوير هو خروج الانسان من قصوره الذي اقترفه في حق نفسه، وهذا القصور هو بسبب عجزه عن استخدام عقله إلا بتوجيه من انسان آخر ويرجع الذنب في هذا القصور الى الإنسان نفسه، لأنّ العلَّة في ذلك ليست في غياب الفكر، وإنما في انعدام القدرة على اتخاذ القرار وفقدان الشجاعة على ممارسته، دون قيادة الآخرين. كن شجاعا ولتكن لك الجرأة على اعمال عقلك بنفسك: ذلك هو شعار عصر التنوير..."[٣٠]، فالتنوير بهذا المعنى هو تحرر من التبعية الفكرية للآخرين، وقدرة على اتخاذ القرار، عبر الجرأة على اعمال العقل الخاص في جميع أمور الحياة. وهذه الشروط من أولويات التفكير النقدي. لقد كان عصر الأنوار عصر النقد بامتياز كما يقول كانط ، ولم يشمل النقد المعارف والمعتقدات وحدها كما سنرى مع فلاسفة ومفكري الأنوار الموسوعيين وليس فقط الدعوة إلى خروج الحس النقدي من برجه العاجي ليشمل

---

[٢٨] - ديكارت: مقال عن النهج، ترجمة محمود الخضيري، مراجعة وتقديم: د. محمد مصطفى حلمي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥، ص ٩٥.

[٢٩] - ريشارد. و. بول، ليندا إيلدر: التفكير النقدي. ص: ٢٨٣.

[٣٠] - مقتطف من إجابة لكانط نفسه على سؤال طرحته مجلة «بري لنش مونتشريفت» الألمانية على مجموعة من الفلاسفة والمفكرين في نوفمبر ١٧٨٤ حول الأنوار. Kant, A. Beantwortung der Frage, Was ist, Aufklaerung, Kant Werke, Bd , 3, Berlin 1900, s. 35. باربارا باومان وبريجيتا اوبرلة، عصور الادب الالماني،(ترجمة)، عالم المعرفة، رقم ٢٧٨، الكويت ٢٠٠٢، ص.١٣٢ .

جميع فئات المجتمع ولكن أساسا سيشمل النقد العقل نفسه الذي سيتوج بالفلسفة النقدية كما سنرى مع كانط.

- **الفلاسفة و المفكرون و العلماء الموسوعيون:** كانت الموسوعة الفرنسية (Encyclopédie, ou dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers) هي الأخرى مساهمة كبيرة في التفكير النقدي وبالتالي العقل الحداثي، نظرا لاعتمادها على منهج نقدي في البحث والتأليف. تم تقديمها من قبل مفكري عصر التنوير الفرنسي مثل ديدرو Diderot ومونتسكيو Montesquieu، وفولتير Voltaire ودالامبير D'Alembert وروسو Rousseau وآخرون، وكانت تجميعا لمجموعة من المعارف والاكتشافات والأفكار الحديثة التي كانت نقدية لما كان سائدا آنذاك، حيث مثلت هذه الموسوعة روح البحث والشك المنهجي في المعارف التاريخية والدينية والإعلاء من قيمة الحرية والمساواة والعقل، مما جعلها تحديا كبيرا لسلطة الملكيات المطلقة وللإقطاع والكنيسة على السواء. "لقد انطلق مؤلفو الموسوعة من فرضية أن العقل البشري، عندما يخضع للمنطق ،يكون أكثر قدرة على معرفة طبيعة العالم الاجتماعي والسياسي. أكثر من ذلك، بالنسبة لهؤلاء المفكرين، يجب على العقل أن يتوجه إلى الداخل ليبحث حول نفسه، من أجل تحديد نقاط الضعف ونقاط القوة في التفكير.لقد أعطوا قيمة للتبادل الفكري المنضبط حيث يجب أن تخضع وجهات النظر لتحليل جدي ونقدي. ولقد أعربوا عن اعتقادهم أن كل سلطة يجب أن تخضع بشكل أو بآخر لمساءلة نقدية منطقية ودقيقة"[٣١].
- **إيمانويل كانط (Emmanuel Kant 1724-1804) :** لقد حاول مؤسس الفلسفة النقدية "كانط" الارتقاء بفكر الحداثة من نقد الأفكار والنصوص إلى نقد العقل ذاته. "مع كانط، سيكف التفلسف عن أن يكون مجرد شك[كما كان الأمر مع("ديكارت Descartes " ١٥٩٦-١٦٥٠)]، ولا مجرد تعبير عن الرأي المشترك أو عما يحدث داخل الطبيعة البشرية من إحساسات وأفكار متولدة عنها [كما كان الأمر مع ("جون لوك John Locke" ١٧٣٢-١٨٠٤) و ("دافيد هيوم David Hume" ١٧١١-١٧٧٦)]، سيصبح تأصيلا جذريا لكل المفاهيم التي بواسطتها يدرك الإنسان راهنيته : العقل، المعرفة، التفكير، الحرية، الفعل الأخلاقي، الدولة، الحقوق البشرية، القيم الجمالية، التربية... سيصبح التفلسف عملا جذريا يفكر في ذاته وفي امكاناته داخل العقل قبل أن يكون مجرد تفكير وتأمل ما يحدث داخل الطبيعة من ظواهر أو

[٣١]- ريشارد. و. بول، ليندا إيلدر: التفكير النقدي. ص : ٢٨٤.

ما ينبغي حدوثه داخل الفعل الأخلاقي أو السياسي أو التقني. ذلك بالذات هو المعنى الجديد الذي سيعطيه كانط للنقد"[٣٢] وللعقل الحداثي.

القرن ١٩ : تم توسيع مجال اشتغال الفلسفة على ترسيخ العقل الحداثي عبر الفكر النقدي إلى ابعد من ذلك ليشمل مجال الحياة الاجتماعية والإنسانية من قبل كونت Comte، وسبنسر Spencer، وماكس فيبرMax Weber. إن تطبيق التفكير النقدي على مشاكل الرأسمالية أنتج البحث الاجتماعي ونقد الاقتصاد لكارل ماركس. وفي الأخلاق والثقافة أنتج لنا أعمال نيتشه، كما أن تطبيق التفكير النقدي على عملية صنع القرار الاجتماعي والسلطة، أنتج تحليلا عميقا للتفكير البيروقراطي وميله للسيطرة على المؤسسات الكبيرة بطريقة تقوض أهدافها الأصلية (ماكس فيبر). وتطبيقه على تاريخ الثقافة البشرية وأساس الحياة البيولوجية، أنتج لنا داروين ومؤلفه أصل الإنسان Decent of Man. وتطبيقه على العقل اللاواعي، انعكس في أعمال سيغموند فرويد. وعندما تم تطبيق التفكير النقدي على الثقافات، أدى ذلك إلى ظهور مجال الدراسات الأنثروبولوجية. وتطبيقه كذلك على اللغة، أدى ذلك مجال اللسانيات وإلى تحليل عميق لوظائف الرموز واللغة في حياة الإنسان.[٣٣]

- **القرن العشرون :** ساهم التقدم العلمي والتقني خلال هذا القرن في ترسيخ سطوة التقنية والإعلام وهيمنة الأيديولوجا والتقنية على الأفراد والمجتمعات المعاصرة، فبرز فهمنا لقوة وطبيعة العقل الحداثي والتفكير النقدي في صيغ أكثر وضوحا على نحو متزايد كقوة للمقاومة والتحرر وإنقاد الإنسان من أشكال الاستلاب والهيمنة الجديدة وتعد فلسفة "جون ديوي" التربوية و مدرسة فراكفورت ونظريتها النقدية أهم الإسهامات النقدية في الممارسة التربوية و للحضارة والفكر والمعرفة في الأزمنة المعاصرة، فقد جاءت هذه المدرسة في سياق فشل حلم عصر الأنوار بميلاد مجتمع سلمي أكثر تحررا وتقدما وانتهى الحلم بحربين عالميتين، فكان أهم ما ميز هذه المدرسة الفلسفية يتحدد في كونها اتخذت النقد منهجا لها، وحاولت " القيام بممارسة نقدية جذرية للحضارة الغربية قصد إعادة النظر في أسسها ونتائجها على ضوء التحولات الأساسية الكبرى التي أفرزتها الحداثة الغربية، وخاصة الأنوار"٣٤. كما أنها لا تكتفي بالتحليل النقدي

---

[٣٢]- عبد الحق منصف: كانط ورهانات التفكير الفلسفي، من نقد الفلسفة إلى فلسفة النقد- أفريقيا الشرق – ٢٠٠٧ – المغرب. ص :١١-١٠.

[٣٣]- ريشارد. و. بول، ليندا إيلدر: التفكير النقدي. ص : ٢٨٥.

[٣٤]- كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، من ماكس هوركهايرمر إلى أكسل هونت. منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠١٠- ص : ٩

للواقع الإنساني، بل تدعو إلى تغيير هذا الواقع وشروطه الموضوعية، حيث يؤكد "هوركهايمر*Horkheimer*"، أحد مؤسسي هذه النظرية، أنها "علاوة على تراث المثالية الألمانية تحافظ على تراث الفلسفة برمتها...فهي عامل لا ينفصل عن المجهود التاريخي في سبيل خلق عالم ملائم لحاجات الانسان ولملكاته... فهي لا ترمي أبدا إلى مجرد تنمية العلم والمعرفة، وإنما تحرير الانسان من القيود التي تجثم عليه"[٣٥] وهكذا فالتفكير النقدي مع هذه المدرسة، لن يقتصر على المساهمة النظرية في تنمية وتطوير العلوم والمعارف، وإنما يتجاوزها إلى محاولة التحرير الواعي للإنسان من أشكال الهيمنة والقمع التي تمارس عليه، وقد سعى أقطاب هذه المدرسة إلى ممارسة النقد والنقد الذاتي المتواصل،مما جعلها تمثل " نموذجا حيا للفكر النقدي الجدي الذي لا يرحم ولا يخشى نتائجه الخاصة"[٣٦].

من خلال الأعمال النقدية لمفكري مدرسة فرانفورت ازداد لدينا الشعور بالإشكالات الحقيقية للأزمنة المعاصرة " التشيؤ والاغتراب، النظرية والممارسة، العقل الأداتي أو العقلانية التقنية، المعرفة والمصلحة، الفاشية، القمع والتسلط"[٣٧]. كما ازداد إدراكنا بأشكال القهر والقمع غير التقليدية التي يعيشها الانسان اليوم، وازداد وعينا بالبنيات القهرية للمؤسسات الاجتماعية (بما فيها المدرسة) والاقتصادية و العلمية (النزعة الوضعية والتقنوية)، وكيف تقوم هذه المؤسسات بالمحافظة على الوضع القائم وكيف تسعى لضرب القيم الأخلاقية و تقويض الديمقراطية وحقوق الإنسان عبر انكار الحقوق الاقتصادية، والسياسية، والمدنية والثقافية للشعوب والأفراد.

بالموازاة مع المساهمة النقدية الهائلة لرواد مدرسة فرانكفورت، بدأت تترسخ عندنا تقاليد بارزة في خطاب التفكير النقدي كحقول معرفية مستقلة بذاتها اتخذت من النقد منهجا لها، في الفلسفة التحليلية وفلسفة الاختلاف والفلسفة التطبيقية والمنطق اللاصوري والعلوم الاجتماعية و الطبيعية ، وفي التحليل النفسي والعلاج النفسي، وفي مجال التربية بدأت تتعالى الأصوات لجعل النقد والتفكير النقدي محور التعليم المدرسي عوض المضامين والمعارف (سومنرSumner و جون ديوي John Dewey)، بل أكثر من ذلك ستظهر بيداغوجيات تتأسس أساسا على النقد والتفكير النقدي في بناء نسقها: بيداغوجيا النقد وبيداغوجيا الانسان المقهور،

- **جون** ديوي John Dewey (1859 -1952) :تعتبر الكثير من الدراسات المعاصرة في التفكير النقدي الفيلسوف الأمريكي "جون ديوي" بمثابة

---

[٣٥]- ماكس هوركايمر: النظرية التقليدية و النظرية النقدية، ترجمة مصطفى الناوي. عيون المقالات،ط ١٩٩٠، الجديدة - ص٧٧ م

[٣٦]- المرجع نفسه : ص : ٤ م

[٣٧]- انظر أبو النور حمدي أبو النور حسن: يورجين هابرماس، الأخلاق والتواصل. دار التنوير، ٢٠١٠- ص ص : ٤٢-٦٠.

الأب الروحي[٣٨] لحركة التفكير النقدي الحديث التي ظهرت في مجال التربية في النصف الثاني من القرن العشرين، لا بسبب نقده للتصورات الشائعة حول أدوار التربية والمدرسة فحسب، بل أساسا بسبب تأكيده على أن دور التربية يجب أن يكون تنمية للتفكير وزرعا للعادات الفكرية الفعالة والعميقة عوض تلقين المعارف الجاهزة، فكما يقول " إنه ليس من شأن التربية أن ترسخ وتلقن كل الأطروحات والمعلومات الممكنة، بل دورها أن تزرع بعمق العادات الفكرية الفعالة لتمييز الاعتقادات والأفكار المختبرة عن تلك الافتراضات و الآراء والتخمينات المجردة، وذلك بتطوير الميولات الفردية لقبول الاستنتاجات والاستدلالات المبنية بشكل صحيح، كما عليها (التربية) أن تغرس في الأفراد الأساليب العملية في البحث والتحقيق والاستدلال المناسبة لمختلف المشاكل التي قد تواجههم"[٣٩]، هذا التفكير الذي تضطلع التربية بتنميته سماه التفكير الانعكاسي أو الاستقصائي Reflective thinking، الذي تعتبره الأدبيات المعاصرة مماثلا للتفكير النقدي الحداثي[٤٠]، فمع " ديوي " حدث الانتقال من مصطلح النقد ذو الصبغة الفلسفية والأدبية إلى التفكير النقدي ذو الصبغة التربوية البيداغوجية، بالمقابل كان النقد والتفكير النقدي السمة الأساسية لمعظم كتابات "جون ديوي" التربوية، فقد قام بنقد التصورات السائدة حول التربية وأدوار المدرسة العمومية داخل المجتمع، وفي ما يلي أهم هذه الآراء[٤١]:

- ربط المدرسة بالمجتمع.
- التربية عملية حياتية وليست عملية اعداد للمستقبل.
- الاهتمام بالموضوعات العملية والمهنية وبمبدأ الفعالية بصورة عامة.
- العلاقة بين الديمقراطية والتربية،

وهكذا مع "جون ديوي" ازداد لدينا الوعي بأهمية التفكير النقدي في التربية، وأن دور المدرسة الأساسي ليس تلقين المعلومات للتلاميذ بل تعليمهم كيف يفكرون بطريقة نقدية، عبر المساءلة والتمحيص العقلاني المستمر والمتجدد لكل المعتقدات والآراء، بل أكثر من ذلك تعلمنا مع "ديوي" أن ترسيخ الديمقراطية والحفاظ عليها رهين بوجود مدرسة عمومية همها تنمية مهارات التفكير والنقد وليس التلقين والحفظ.

---

[٣٨]- Alec Fisher, *Critical thinking, An Introduction*- Cambridge University Press, USA, 2001.p: 2.

[٣٩]- John Dewey, *How We Think*, Cosimo,Inc.2007.New York. P: 27.

[٤٠]- Alec Fisher, *Critical thinking, An Introduction*- p2.

[٤١]- انظر جون ديوي، المدرسة والمجتمع، ترجمة أحمد حسن الرحيم- دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٨- ط٢ . ص٢٧.

٢- مكانة الفلسفة فى المجتمع العربى :

عرفت الفلسفة في المجتمع العربي بشكل عام، مجموعة من الخصوصيات، هي التي حددت مكانتها الفعلية، والتي يمكن إجمالها في النقاط الأتية:

(أ) التبعية الفلسفية العربية :

ليست الفلسفة مجرد فكر بلا زمان ولا مكان ، بلا مجتمع ولا حضارة إنما هى نظام فكرى ينشأ فى عصر، ويقوم به جيل ويخدم مجتمعا ويعبر عن حضارة ، هذا ما حاول أصحاب المنهج الاجتماعى فى دراسة الأفكار اثباته، وقد تكون أزمة الفلسفة وتدريسها فى مجتمعنا العربى نابعة من غياب هذه البديهية وعدم الوعى بها وعيا علميا، وجرت العادة لدى البعض ممن تناولوا الوعي الفلسفي العربي المعاصرأن يصنفوا الفلاسفة العرب باتجاهات فلسفية - هي في الغالب - اتجاهات غربية. فيتحدثون عن الماركسية والوضعية والوجودية والشخصانية... وهذا يعني أن ما يسمى بالفلسفة العربية المعاصرة ليس إلاَّ صدى لصوت الفلسفة الغربية من جهة، وتنظر إلى الوعي الفلسفي العربي نظرة ميكانيكية من جهة أخرى فأزيد من ثمانية قرون خلت والوطن العربي لم ينجب فيلسوفاً واحداً، إلا أننا لا نعدم وجود بعض الأفكاروالاتجاهات الفلسفية التي أفرزتها الحقبة الحديثة. إذا كان الإبداع الفلسفي- إبداعا لمفاهيم النظرية – شرطاً ضرورياً لعالمية الفيلسوف، فإنه ليس شرطاً كافياً. فالفيلسوف لا يغدو عالمياً إلا إذا انتمى إلى أمة عالمية. وإذا كان بعضهم يعتقد أن العرب لم ينتجوا الفيلسوف العالمي، فهذا ليس بسبب أنه أقل شأناً من غيره بل لأن أمته لم تحمله إلى العالمية، من هنا كان الهاجس الأول للفيلسوف العربي أن يفكر بعالمية أمته التي لم تحتل مكانة بارزة بين الأمم.[٤٢]

وحال الفلسفة في مدارسنا وجامعاتنا العربية اليوم ليست بالمستوى المناط بها، فأصبحت عبارة عن تجميع لأقوال وعرض لمذاهب وشروحاً على نصوص ... الخ. فقد تحول قسم كبير من المفكرين والمدرسين والطلبة العرب إلى وكلاء حضاريين ممثلين لمذاهب غريبة عن بيئتنا، وذلك بسبب ريادة الغرب وغزوه الثقافي العولمي، وانتشاره خارج حدوده، وعلى الرغم من غياب المدارس الفلسفية بمعناها المعروف في تاريخ الفلسفة، وغياب الإبداع الفلسفي. لا بد للمشتغلين بالفكر الفلسفي من موقف مشترك يتيح لهم فرصة الإعلان عن الهوية الفلسفية بعد أن تزايدت الحاجة إلى ثوابت تيسر لنا القدرة على

([٤٢]) حسن حنفى (موقفنا الحضارى) من الفلسفة في الوطن العربي المعاصر، (مركز دراسات الوحدة العربية)، الطبعة الأولى، بيروت، سبتمبر ١٩٨٥، ص ٤٢.

مواجهتها للتحديات التي تهدد المصير العربي برمته- فهل حان موعد إعلان وثيقة الحكمة العربية المعاصرة؟[٤٣]

والفلسفة على حد تعبير(التوسير) (Althusser): "هي صراع طبقي في النظرية"[٤٤] حيث شكّل ظهور الهيمنة الحضارية الغربية بداية هزة في ثقافتنا العربية، فولّدت لدينا حديثاً عن التراث والأصالة، والحداثة والتقليد، وجعلت من ثقافتنا العربية ثقافة هامشية غريبة عن الحضارة وعن الأصالة، وفرضت علينا ألوانها وأشكالها، ووضع أسس الكونية (العالمية) الغربية كعلامة ملازمة للحاضر والمستقبل، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى التأثير الذي مارسته الحضارة الأوربية على الفلسفة العربية.[٤٥]

أ- **التخلف العربي وهيمنة الرؤية اللاهوتية:** هذا المحدد جعل الممارسة الفلسفية في أفقها المتنور والتنويري غائبة، أو حاضرة في صور موقف يسعى إما إلى تبرير مشروعيته، وإما إلى دمج المنطق في الوحي. وهذه المسألة لا تتعلق بعصورنا الوسطى وحدها، بل أيضاً بحاضرنا حيث يستمر صدى فتوى (ابن الصلاح الشهرزوري القاضي) بتكفير الفلاسفة والمبشر بأسبقية اللاهوت على كل فاعلية بشرية، وعلى الرغم من تحريم الفلسفة، بفتوى من (ابن صلاح الشهرزوري)، واستئناف الوعي العربي المتسائل مغامراته العلمية والنقدية، في محاولة جادة لجعل التاريخ العربي معاشاً ومفتكراً، مقروءا ومنتقداً، منتظما ومفهوما فقد أحيت الفلسفة العربية ذاتها من داخل تاريخ بحث صانعوه العرب عن هوية ثقافية قومية، قائمة وملتبسة، متحررة ومرتهنة، الأمر الذي جعل فلاسفة العرب يجددون النهوض الفكري، ويبرزون التفلسف العربي كمشروع عقلاني.[٤٦]

هذا المشروع الذي مازال يتكئ – في سماته ومنهجياته –على الموروث والمستورد، أخذ يبحث عن توليف علمي يتجاوز في وقت واحد الارتهان المزدوج للموروث غير المفسر علمياً، وللغريب الغربي والمتغرب غير المتجانس مع حضارة عربية حيث شكّل القرن التاسع عشر بؤرة حاسمة في تحول الوعي العربي، وتحول

([٤٣]) صالحشقير،الحضورالفلسفيفيالفكرالعربيالحديث،مجلةجامعةدمشق،المجلد (٢٦)، العددالأول+الثاني ٢٠١٠، ص ٤٨٢.

([44])L . Althusser, Réponse Ajohn Lewis (Paris:Maspero¸1973), P.41

([٤٥])صالحشقير،إشكاليهالعقلانيةبينالذاتوالآخر،مجلهدراسات، الجامعةالأردنية،المجلد، (٢٦)، العدد(١) عمان، ١٩٩٩ ، ص١١٧.

([٤٦])مصطفعبدالرازق،تمهيدلدراسةالفلسفةالإسلامية، ط ٣، القاهرة،مكتبةالنهضةالمصرية، (د.ت)، ص ٨٦-٨٤.

التاريخ العربي، وذلك من خلال المعطيات التاريخية العالمية، إذ يعد هذا القرن، كما نعرف جميعاً، قرن انتقال الرأسمالية إلى عتبة الإمبريالية، ولهذا التحول الخطير تأثير كبير في بنية التاريخ العربي والعالمي، وقد أفرز بلورة بدايات الوعي الجديد وآفاقه في الفكر العربي المعاصر، وآية ذلك أن تشكل الوعي العربي الجديد واكب تاريخا محاصراً ومكبلاً بكلمات فرضه مقتضيات الهيمنة الاستعمارية المضافة إلى قيود التاريخ الوسيط، المتمثلة أساسا في سيادة التقليد، وسيادة سقف العقائد، ثمت حجر البنى الاقتصادية والمجتمعية نتيجة لعوامل تاريخية موضوعية.[٤٧]

ومن هنا ارتبط الفكر الناشئ بالنزعة الإصلاحية، وإصلاح الأحوال العامة، ومواكبة تحولات التاريخ الغربي، وإصلاح العقائد وأنظمة الحكم، وإصلاح اللغة، وتمت مرادفة الإصلاح بالنهوض، والنهضة، واليقظة، والتقدم، والرقي، في الكتابة العربية المعاصرة، في منتصف القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين،

ويرى (برقاوي) " أن سؤال النهضة تحول ذاته إلى سؤال فلسفي ينتمي بمعنى من المعاني إلى فلسفة التاريخ. وأصبح السؤال الرئيسي: كيف السبيل إلى تقدم تاريخي على غرار التقدم الأوربي؟ لقد وجد المفكر النهضوي الجواب في أوربا بمعنى أن أوربا هي العلم والعقل والديمقراطية، ومن خلال علاقة آلية (ميكانيكية) تقليدية مع الغرب، صار الشرق يحتاج إلى العقل والعلم والديمقراطية. وما غير الفلسفة بقادرة على أن تحدث هزة في الوعي لإنجاز التقدم المنشود؟. ولهذا عادت الفلسفة مرة أخرى وعاد ديكارت وبيكون وروسو وكونت، وماركس ونيتشه، كما عاد ابن رشد" [٤٨] ، وهو نفس ما ذهب إليه (شكيب رسلان) في عنوان كتابه : (لماذا تقدم الغرب)، ويرى (محمد عابد الجابري) "أنه إذا كان التقاطع التاريخي الوسيط يبين الفلسفة اليونانية والفكر العربي الإسلامي قد أنتج الفلسفة الإسلامية الوسيطة، فإن التقاطع التاريخي العنيف الذي حصل في الوطن العربي ضمن محددات تاريخية جديدة في نهاية القرن التاسع عشر أنتج بدوره ردود فعل فلسفية متعددة في الفكر العربي الحديث، وقد اتسمت بسمات غلب عليها طابع رجع الصدى، أكثر من طابع المشاركة النقدية في الابتكار والمساهمة في إغناء تاريخ الفلسفة".[٤٩]

وأدت المثاقفة العسيرة بين المشرق العربي والغرب الأوربي، في مرحلته الاستعمارية، إلى تعريف المثقفين العرب، في مرحلة أولى بالمنظومة الفلسفية الفرنسية، المواكبة لفلسفة الأنوار، ثم تعرفوا ، في مرحلة ثانية، الليبرالية الإنكليزية ، والفلسفة الوضعية، مما

([٤٧])مصطفىعبدالرازق،تمهيدلدراسةالفلسفةالإسلامية، ط ٣، القاهرة،مرجع سابق، ص ص ٨٦-٨٤.

([٤٨])أحمدبرقاوي،العربوعودةالفلسفة،دمشق،دارطلاس، ٢٠٠٠، ص٢٠.

([٤٩]) محمدعابدالجابري،تكوينالعقلالعربي،ط ٤، بيروت،مركزدراساتالوحدةالعربية، ١٩٨٩، ص ٢٢٠-٢٢٥ .

جعل الفكر الفلسفي العربي يتلون بالطابع السياسي التاريخي، دون أن يتمكن من صياغة هيكلية في فلسفة السياسة. فسادت النزعات الليبرالية الداعية إلى الحرية والتقدم، والنزعات الوضعية المواكبة لطموحات العلم. ويستطيع المتتبع للنصوص ذات الصبغة الفلسفية في الفكر العربي الحديث أن يلمس ثقلا لمرجعية التاريخية، الناظمة للنزعتين السابقتين، التي تجلت في زمن التأخر العربي الشامل، في تلوين الترجمة والتأويل وفي توجيه الفكر الفلسفي نحو قضايا ذات مسحة تاريخية، ونحو سياسة محددة.(٥٠)

من المثالب التي وقع بها المفكر النهضوي أنه جعل من العلم أساساً لصحة معارفه، بدلاً من أن يجعل الانخراط في التجربة العلمية ومعاينة الواقع بآلياته هو الأساس، وبهذا اكتفى بالاستهلاك العلمي بدل أن يمارس الفعل العلمي النقدي للواقع، وتحول بذلك إلى علموية أي أيديولوجية يبشر بالعلم ويمتدحه، إلى أن أصبحت قاعدة تحطيم المسعى العلمي الحقيقي من خلال اعتقاده بأن العلم موجود، جاهز ومتطور، وليس علينا إلا أن نأت بها .

ت- الفلسفة في التعليم العربى :

إن المتفحص لواقعنا الحاضر يجد أن الفلسفة في الوطن العربي بصفة عامة لاتزال بعيدة من أنّ تؤدي أي دور تغييري في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية. وهذا لوجود كثير من العقبات منهاماّ يتعلق بالفلسفة ذاتها ومنها ما يتعلق بالإطار الاجتماعي الذي تمارس فيه. ونذكر هنا أهم هذه العقبات:

العقبة الأولى: تتعلق بطبيعة الفلسفة ذاتها، حيث إن معظم الأفكار والنظريات الفلسفية التي نتداولها مصدرها الغرب، إذ نجد ترسيخاًٍ لتصورمعين للفلسفةّ يجردها من وظيفتها النقدية التقويمية على صعيد التنظير الاجتماعي والسياسي(٥١) والأمثلة على هذا كثيرة، فالفلسفة التحليلية التي سيطرت لفترة طويلة على مسرح فلسفة القرن العشرين تقوم على النظرإلى أن الفلسفة محايدة، وأنها إذا أريد لها أن تكون فلسفة علمية وجب على أصحابها أن يحصروا مهمتها في التحليل النقدي للغة من أجل توضيح معنى ما نقوله من عبارات ... إلخ.(٥٢)

كيف نجعل من الدرس الفلسفي في مدارسن االثانوية وفي جامعاتنا فاعلاً منتجاً لدور تنويري وتغييري ملح؟ هذا هو السؤال الجوهري المركب الذى يعبّر عن هاجس البحث

---

(٥٠) كمال عبداللطيف،التأويلوالمفارقة،بيروت،المركزالثقافيالعربي، ١٩٨٧، ص ٣٧-٤٦.

(٥١)عادلظاهر، " دورالفلسفةفيالمجتمعالعربي،"ورقةعمل قدمتإلى مؤتمرالفلسفيالعربيالأولبعنوان الفلسفةفيالوطنالعربيالمعاصر الذينظمتهالجامعةالأردنية،بيروت: مركزدراساتالوحدةالعربية، ١٩٨٥،ص ٧١.

(٥٢)لودفيغفيتغنشتاين،رسالةمنطقيةفلسفية،ترجمةعزميإسلام؛تقديمزكينجيب،القاهرة،مكتبالأنجلوالمصرية، ١٩٦٨،صص ٣١- ٤٠.

عن فلسفة مدرسية وجامعية تكون موجهة وموجهة في الآن ذاتـه، وتكون بالفعل طريقاً ينتهي بنا إلى الانخراط والاندماج في "ثقافة الحداثة" أي ثقافة التغيير والتجديد والابتكار التي صارت شعاراً مرفوعا في أقطارنا العربية في المرحلة الراهنة التي تواجهنا فيها تحديات "ثقافة العولمة" فإذا كانت الفلسفة تواجه المستوى المجتمعات العربية عوائق تمنعها من أن تؤدي دوراً فاعلا في سبيل إحداث التغيير المنشود، فإنها ليست أفضل حـالاً في جامعاتنا وفـي مدارسنا الثانوية، إذ يواجه الدرس الفلسفي أيضا جملة من العقبات تعترض طريقه نجملهافيما يلي :

العقبة الثانية : تتمثل في مستوى النقد الموجه إلى الدرس الفلسفي بصفة عامة، حيث يقوم هذا النقد على أن تعليم الفلسفة يتجاهل حاجيات المتعلم، ويتجاهل متطلبات الحاضر أيضـاً. فلا نعثر على ما هو راهـن وجديد إلا من خـارج التعليم الفلسفي. ويتعزز هذا النقد الموجه إلـى تعليم الفلسفة بمحتوى أطـروحـة ثقافية تـرى في ماضي الفلسفة عبارة عن جسد ميت، أصبح - بحكمّ التحولات التي يعرفها نظام التربية - متجاوزاً. ومن ثمة، فإنه يتعين على القائمين على الدرس الفلسفي، إذا أرادوا الاحتفاظ بوظائفه التربوية، أن يقوموا بتغييرات جوهرية، تتوجه إلى مناهج الـدرس الفلسفي ومقاصده، وهـذا بأن يكون الـدرس الفلسفي أكثر ارتباطا بواقع المواطن العربي، رغم أن المفاهيم المدرسة في السنة الثانية باكالوريا في المملكة المغربية تستجيب إلى حد كبير لهذا المطلب، من حيث إنها تتناوق قضايا في ارتباط مباشر بالإنسان، في أبعاده المختلفة، الانطولوجية، الابستيمولوجية، السياسية، والأيطيقية، إلا أنها لا تؤدي الهدف منها ولا تحقق الغاية المنشودة،

العقبة الثالثة : تتمثل في النقد الداخلي هذا النقد تتبناه بعض الآراء والاتجاهات التعليمية في الفلسفة، ذاهبة إلى القول بوجوب تبسيط المعارف واختزالها على أساس أنّ المتعلم يحتاج إلى أن يتعلمّ بتدرج، وأن الإكثار من الأفكار والنظريات والمفاهيم الفلسفية المطروحة تاريخياً، يجعل المتعلم عاجزاً عن التكيّف مع محيطه، وغير قادر على إيجاد حلول لمشاكله ومشاكل مجتمعه إضافة إلى ذلك لو كنا نسلم بالدور الكبير والمهم الذي تؤديه العلوم البحتة في ميدان نشر الوعي ومن ثم إحداث التغيير، فإن تدريس هذه العلوم في تعليمنا بعيدا من الفلسفة يواجه بعض الـصـعـوبـات، مـن ذلـك مـا أشـار إلـيـه الـفـيـلـسـوف دومـيـنـيـك لـوكـور فـي دراسـة لـه بـعـنـوان: " لـمـاذا تدريس الفلسفة وتاريخ العلوم لطلبة التخصصات العلمية"،حيث قال: "يوجد عدد كبير من طلبة التخصصات العلمية يعانون أزمـة، فعلى الرغم من أنهم تلقوا تقنيات ومـعـادلات

ونظريات، إلا أنهم ظلوا يفتقدون تلك النظرة الشاملة لماهية الفكر العلمي، حتى في داخل ميدان تخصصهم".[٥٣]

فمعلم الفلسفة يرى أن جهوده التربوية والتعليمية، وعمله الشاق في تاريخ الفلسفة، يصطدم بواقع التلميذ الثقافي والمعرفي، وأن عمله لا يلقى الاستجابة المقبولة لدى المتعلم، ومرد ذلك، بحسب هذا الخطاب، هو ضعف مستوى التلاميذ اللغوي والمعرفي، وهذان شرطان ضروريان وسابقان لإنجاز أي درس في الفلسفة.

٣- دور الفلسفة فى علاقتها بالفكر :

تتعدد أدوار الفلسفة في فكرنا؛ فهي ليست عملاً عقلياً مجرداً بعيداً عن الممارسة الإجرائية في حياتنا، ولا عديمة الجدوى كما يدعى البعض، وهي ليست بالاستهلاك الفكري الذي لا يؤدي إلى النفع فهي تتضح في مشاركتها لنا في شتى مناحي الحياة، وتصاحب فكرنا في جل أمورنا، وهذا ما ستحاول الباحثة إبرازه من خلال التطرق لتحديد العلاقة القائمة بين الفلسفة و العقل، فالفلسفة تحث الانسان على تعقل معنى الحياة والاهتمام بمشكلاته الواقعية، فهي اتجاه عملي لتوجيه السلوك، إذ يربط أصحاب هذا الرأي الفلسفة بالحياة، لأنهم يرون أنه لا بد من حقيقة فلسفية يعيش عليها الإنسان ويحيا من أجلها، ولولا هذه التجربة العقلية التي تغذي حياة الإنسان، لما كان للفلسفة أي موضع في الوجود البشري، ومن ثمّ كانت أهمية الفلسفة للفرد، حيث إنها تعمل على إشباع رغبته في المعرفة، وما يتطلب معه تنمية قدراته في التفكير وحل المشكلات، وتؤدي الفلسفة إلى تنمية الروح الفلسفية لدى صاحبها، حيث تتمثل هذه الروح في استقلال الفكر المستنير، الذي يرفض الوصاية عليه، والنقد العقلي الذي لا يسلم بشيء تسليما أعمى، وتربية العقل على التساؤل المستمر والدهشة، كما توسع آفاق العقل وتنمي فيه الاستعداد للتأمل، وتحفزه على اتخاذ القرار الأخلاقي الحر، وأهم ما يميز هذه الروح الفلسفية، أنها تقوي إحساس الإنسان بمسؤوليته على مواجهة مشكلاته وأزماته وصراعاته بفكره الخاص، كما تساعده على بحثه او تنظيمه اوإ يجاد الحلول لها. حيث اتفق جميع فلاسفة التنوير الأوربيين في إعتبار أن العقل هو السلطان على كل شيء، حيث عبر (كانط) عن هذا السلطان في مقالته بعنوان جوابا عن سؤال ما التنوير؟ جاء فيها أن التنوير "كن جريئا في إعمال عقلك "وفي عبارة أخرى "التنوير يعني ألا سلطان على العقل إلا العقل ذاته".[٥٤]

([53])Dominique Lecourt, «Pourquoi Enseigner La Philosophie Et L'histoire De Sciences Dans Les Cursus Scientifiques,» Rue Descartes, Vol. 3, No. 41 (2003), P. 1.

([٥٤])محمدكاملظاهر، الصراعبينالتياريناالدينيوالعلمانيفيالفكرالحديثوالمعاصر، دارالبيرونيللطباعةوالنشر، ١٩٩٩،ط١، ص ٢٤.

وتبدو أزمة الفلسفة في العالم العربي والإسلامي أزمة العقل المأزوم المسكون بـ"ضدية الفلسفة" أو "الضد العقلي" بمعنى "الفلسفة الضدية التكفيرية"، فتبرز على الساحة العربية الإسلامية مجموعة من الأسئلة الملحة التي تنطلق من هذه الممانعة التاريخية المضادة لـ "لزوم التفلسف" من قبيل: هل محنة الفلسفة عند العرب هي محنة العقل العربي التكراري والاجتراري والتراثي؟ وإلى أي حد يمكن الحديث عن عقل فقهي / نقلي يقف على طرف نقيض من العقل الفلسفي؟ ولماذا يخاف العرب من الفلسفة إلى حد منعت عليهم ممارستها ،وبالتالي تقليص حضورها في جامعاتهم ومدارسهم، ولا سيما في عدد من الدول الخليجية!.[٥٥]

والفكر الغربي عزز حداثته بمحاولة تثبيت سلطة العقل من جهة وتهمس تجليات اللاعقل من جهة أخرى. حيث قامت الحداثة الغربية على أساس استهلاك اللامعقول وتبديد معاقله "فالحداثة" تمثل لحظة تاريخية حاسمة في مسيرة العقل الغربي، حيث شهد المجتمع الغربي حركة تحديث في سائر المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وقام مشروع الحداثة على اتجاه رئيس نحو تحطيم المقدس، ومن منطلق رفض أشكال اللامعقول، وتظهر الحداثة بمثابة صيغة مميزة للحضارة الغربية تعارض صيغة التقاليد، لأن وعي الحداثة بذاتها يستند إلى وعيها بضرورة تمييزها عن القديم، وترك الأشكال التقليدية في كل مجالات الحياة سواء تعلق الأمر بالسياسة أو الاقتصاد أو المعرفة، بحيث تكمن ماهية المجتمعات الحديثة في الطريقة التي تحرر الفرد من ثقل التقاليد لذلك فإن المجتمعات التقليدية تمجد الماضي وترفع تقاليده أصناما للعبادة رافضة كل حركة تجدد وابتكار.أما المجتمعات الحديثة فهي التي تجد نفسها في المستقبل وفي اللحظات الآتية التي تقتضي من الانسان الإبداع والمغامرة نحو آفاق انسانية أكثر عمقا وأصالة.[٥٦]

وسؤال الحداثة يجابه أية أمة تجد نفسها مهددة في مصيرها وأوروبا لم تطرح على نفسها سؤال الحداثة إلا عندما وجدت نفسها وجها لوجه مع انحطاط القرون الوسطى الذي كرسه التحالف الكنسي الإقطاعي الظلامي بل إن مصطلح الظلامية نشأ أساسا كتعبير عن قوى كانت تقف عائقا في التقدم التاريخي مما استلزم ضرورة تبديد هذا الظلام وتأسيس طرائق الأنوار والحداثة ولما أعيد هدا السؤال في عصر النهضة العربية في النصف الثاني من القرن ١٩ وما أصطلح على تسميته بصدمة الحداثة لم يكن الهدف إعادة إنتاجهم تجربة

---

(٥٥) ريتا فرج، فيا الفلسفة والتفلسف، مقالة ضمن كتاب:

حال التدريس الفلسفة في الوطن العربي، المركز الدولي لعلوم الإنسان، بيبلوس، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، ٢٠١٥، ص ٢٤.

(٥٦) عدنان علي رضا النحوي، تقويم نظرية الحداثة، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة ٣، الأولى، ١٩٩٢، ص ١٠٦.

اوروبا بحذافيرها أو استعادة إحدى مراحل تاريخها لإعادة إنتاج مطابقتها، بل لقد كان هدف الرواد الأوائل هو توطين قيم إنسانية عامة قادرة على الإسهام على صياغة وعي تاريخي وحضاري عربي.[٥٧]

لم يعرف المجتمع العربي مثل تلك التطورات الفكرية والعلمية والصناعية التي حدثت في أوروبا وغيرت مجتمعاتها تغيرا جذريا لكنه عانى منها عندما اصطدمها في عقر داره وهو في حالة اغتراب كامل عنها. ومازال حتى الآن يدور في فضاء تلك الصدمة وما أفرزته من نتائج وأثار. ان قراءة فكر النهضة العربية يقودنا إلى تميز ثلاث مراحل لهذا الفكر:

١- مرحلة البحث عن الذات وهي المرحلة التي كان العرب فيها يبحثون عن هويتهم الحقيقية.

٢- مرحلة اكتشاف الذات والتأكيد على القومية العربية هي المعبر عن هذه الذات وشخصيتها وهويتها.

٣- مرحلة تنمية الذات وتطويرها وهي المرحلة التي نشأت فيها الإشكالية بين التيار الحداثي والأصولي السلفي بعد أن تعمق الحضور العربي في الفكر العربي ووجد العرب أنفسهم أمام نموذج حضاري ديناميكي يحمل مقومات وخصائص تحدي نموذجهم الحضاري القائم بشكل أساسي إيديولوجية الإسلام مند أزيد من أربعة عشر قرنا، وقد أظهر هذا التحدي أن النموذج الإسلامي يعاني من أزمة ومن نقص في المناعة أمام النموذج الحضاري العربي على كافة المستويات الدينية والمالية والاجتماعية والعلمية التي شكلت يوما قوته وعنفوانه.[٥٨]

ويؤكد "وايتهد " (Whitehead)أهمية الفلسفة للحضارة من حيث إنها محاولة لتنظيم جميع المعلومات المتوفرة فى فكرة عامة. كما أنها أكثر تأثيرا من كل الدراسات الفكرية، فهى تبنى القصور الشامخة قبل أن يكون العمال قد حركوا حجرا واحدا، وتهدمها قبل أن توضع مواد البناء فى أماكنها. إنها مهندسة مبانى الروح وهى أيضا محطمتها، والفلسفة قد تعمل فى بطء، فقد ترقد الأفكار فى سباتها عدة قرون ثم على حين غرة يجد الجنس البشرى أنها أصبحت جزءا أصيلا فى كيانات النظم الاجتماعية. والفلسفة أولا وأخيرا جهد يهدف إلى الحصول على فهم منسق منطقى للأشياء الملاحظة.[٥٩]

---

(٥٧) مرادوهبه، مُلاكالحقيقةالمطلقة، دارقباء، مكتبةالأسرة،الطبعةالأولى، ١٩٩٩، ص ٣٥.

(٥٨) أحمدأبوزيد، التنويرفيالعالمالعربيالمعاصر، قراءةأنتروبولوجية، مجلةعالمالفكر،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد (٣)، المجلد ٢٩ يناير ٢٠٠١، ص ص ٣٩-٤٠.

(٥٩)ألفريدنورثوايتهد،مغامراتالأفكار،ترجمةأنيسزكىحسن،بيروت،دارمكتبةالحياة،ط٢،ص١٣.

الخلاصة والنتائج :

مما سبق يتبين أن أدوار الفلسفة تتعدد وتتنوع، لكن تبقى مهمتها الأساس بناء عقل وفكر ذو طبيعة خاصة ومتميزة، عقل لا تعلوه أي سلطة أخرى غير نفسه، فالفلسفة بهذا المعنى ضرورية في حياة الإنسان في المستوى الفردي وفي المستوى الاجتماعي وفي المستوى الأممي الإنساني وفي المستوى الفكري والعلمي والثقافي والحضاري، الفلسفة ظاهرة فطرية طبيعية في الإنسان من هنا تأتي أهمية الفلسفة لتقوم بمهمة هذا الربط بين نتائج العلوم المختلفة لاكتشاف الحقائق الكلية في الكون والتي تقصر العلوم الجزئية عن بلوغها ومنها الطبيعة الإنسانية. إن سقراط عندما قال مقولته الشهيرة "أيّها الإنسان اعرف نفسك بنفسك." قد قصد هذا المعنى، قصد الكشف عن حقيقة أن الإنسان لن يتمكن من معرفة نفسه إلا من خلال الفلسفة، ومن ثم أثر سقراط أن يدفع حياته ثمنا لهذه المعرفة، لأنه وجدها تساوي الحياة نفسها.

والفلسفة بصفة عامة تساهم في بناء الإنسان عقليا ونفسياً واجتماعيا وخلقيا ودينياً، وتساهم في بناء المجتمع وفي تطويره وازدهاره، وتساهم في أنسنة الإنسان ليحيا الإنسانية في أبعـد مداها في ذاتـه وفي محيطـه باستمرار.

والمناهج العلمية اليوم في حاجة ماسة إلي فروض فلسفية لكي تقوم لها قائمة أصلاً مثل الإيمان بمبدأ العلة، وبساطة الطبيعة ومعقوليتها. وكل علم يعتمد على طائفة من المعاني الأولية التي تعد أساسا له، فالعلوم الرياضية مثلا تعتمد على معاني الوحدة واللانهائي والنهائي وغيرها من فروض فلسفية. والعلوم الطبيعية تعتمد على معاني المادة والقانون والعلة والقوة والحركة إلي أخره، والعلوم الإنسانية في حاجة إلي معاني جوهر الإنسان وأصله ومصيره، وما تقرر له من حقوق وما يفرض عليه من واجبات، والفلسفة هي التي تكشف عن هذه المعاني حقيقتها وقيمتها. والجانب الثاني لأهمية الفلسفة أنها هي التي تكشف للعلم عن طبيعة العقل الذي هو أداة من أدواته التي يستعين بهاعلى ضبط المشاهدات والتجارب .

والفلسفة لا تفهم إلا في قلب التغيير الذي يحصل في المجتمع، بل هي صانعة للتغيير نفسه، أسست لمناهج علمية وقعدت لشروط الفهم القيمي والأخلاقي للكائن البشري، ولم تكن وصفتها نظرية خالصة كما يدعي خصومها، وإنما الإحساس بنشوة التفلسف لا يتأتى إلا بملامسة تفاصيل الحياة اليومية للإنسان، حيث تتغذى التجربة الفلسفية على ممكنات الصراع التي يخلقها عالم اليوم، وتتجاوز ذلك إلى طرح أسئلة مرتبطة بأشكال التعاطي مع منطق المجتمع وتحولاته الكبرى؛ تحولات تخلق تحد على مستوى المعايير والرموز، وتصنع لغطا فيما يخص الخطاب المنتج للمعاني الحقيقية القادرة على مواجهة عمق الأزمة

التي باتت تقلق الإنسان وتولد لديه الشعور بالجمود والعطالة. هكذا تكون الفلسفة كاشفة لشروط فهم الواقع تحقق التلازم المزدوج بين سؤال ما الفلسفة؟ وسؤال ما قيمة الفلسفة؟ لأن قضية الماهية تجر إلى العمق والجوهر، بينما تقدم القيمة رهانات مجتمعية تمزج بين الفكرة وكيفية تلبسها على مستوى الأجرأة والتفعيل، وفي كل ذلك إغناء إيجابي لدور الفلسفة ولما تدين به للشروط الاجتماعية.

وأفكارنا عن العالم ليست مستندة إلى الشك و الحس النقدي ، فغالبا ما نعيش بطريقة خالية من النقد ، تأخذ اتجاه الوجود موقفا ساذجا و طبيعيا ، متمسكين بتفسير العالم الشائع كما أمدتنا به لغتنا الأم و تقليدنا الوطني ، فنحن حينها نظل داخل نسيان الحقيقة و في النهاية داخل الخطأ ، و ما لم نجر قطيعة مع الرؤية الشائعة للعالم ، فإننا سنستمر في الاعتقاد بأننا نعرف من نحن ، و ما هو واجبنا و ما هي غايتنا في الوجود [٦٠] ، إننا يجب أن نتساءل باستمرار مثلما تساءل نيوتن :" لماذا التفاحة تسقط بسرعة على الأرض و لا تبقى معلقة في الهواء مثل القمر ؟ " يجب علينا أن ننسلخ من المعرفة الجاهزة التي ورثناها عن أجدادنا ، دون أن نعرف حقيقتها ...

تعلمنا فلسفة الأنوار أن وظيفة المدرس بالمعنى العصري ، لا تكمن في تهذيب الأخلاق أو مذهبة المعقلات ، من أجل الدمج أو إعادة الدمج في رحى المجتمع السائد ، ذلك أن التصور القائل بأن المدرسة هي غسيل للأدمغة هو تصور كلاسيكي ، و أن التلميذ صفحة بيضاء مستعدة للنقش فوقها، ومنه ضرورة تجاوزه إلى إدراك أن مدرسة العصر الراهن هي مدرسة عمومية تشتغل في ظل دولة القانون و المساواة و تكافؤ الفرص ، إنها بمثابة الفضاء الروحي الذي سيمكن الفرد من تأسيس معنى الوجود و بنائه أيا كانت أصول هذا الفرد و انتماءاته [٦١] .

على هذا الأساس كانت غاية التدريس و التمدرس هي العمل الدؤوب من أجل التنوير (كوندورصيه) حتى يصبح الفرد قادرا على التفكير بذاته ، و من ثمة على إصدار أحكامه و اختيار قيمه و ممارسة حياته بكل حرية ، و دون الاحتكام إلى أي سلطة خارج سلطة العقل (كانط) ، قد نجانب الصواب إذا نعتنا هذه الحرية بالفردانية و المثالية ، فمن الأكيد أنها وليدة إرادة فردانية خاصة ، إلا أنها تلتقي و تتقاطع مع إرادة الأفراد الآخرين من أجل تكوين إرادة عامة (روسو) أو تأسيس عالم مشترك (حنا أرنت) ، و لأجل ذلك لا بد من العمل لتحقيق غاية المدرسة الحديثة و المتمثلة في التعميم العادل لمعارف مستنيرة من أجل

---

[٦٠] المصطفى شباك :" الحداثة و التربية " ترجمة محمد أسليم ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، ١٩٩٩ ص ٢٢/ ٢٣

[٦١] نفس المرجع السابق ص ٣٠/ ٣١

تنوير العقول مهما اختلفت أصولها و تباينت انتماءاتها ، الأمر الذي يسمح تدريجيا باستقلال الذوات في التفكير و إصدار الأحكام و ممارسة الأفعال من أجل بناء مشروع حياة مشتركة[٦٢].

لقد ظلت التربية جزءاً من استراتيجية التغيير الاجتماعي والسياسي والثقافي، وبالتالي الدفع بالمجتمع نحو التحديث والديموقراطية، على اعتبار أن للتربية علاقة تفاعل مع التنمية، كما أن التربية إذا أُحسن استخدامها وتوجيهها تساهم بفعالية في تحقيق التنمية واستمراريتها.

كما ان التغيير و التجديد في المجتمعات البدائية كان أمرا نادرا ، أو يمكن القول أنه كان بوثيرة جد بطيئة ، لكنه في الفترة المعاصرة أصبح حقيقة واقعة ،فأصبح الإنسان المعاصر في تحد كبير، الأمر الذي يتطلب منه أن يعدل نفسه ويجدد معارفه و أساليب حياته و تفكيره بشكل مستمر، من خلال اكتسابه مهارات جديدة في كل المجالات الحياتية منها و العملية .

إن التربية على الرغم من تعريفاتها المتعددة تبقى في جوهرها عبارة عن عملية ترسيخ أو بناء القيم عبر الأجيال ، هذه القيم هي عبارة عن مبادئ و عقائد و ضوابط و أخلاقيات و آداب التعامل مع الذات من جهة ، و مع الآخرين في جميع المجالات من جهة أخرى .

لقد أمضى الإنسان الأوروبي ثلاثة قرون محاولا التخلص مما كسا عقله و صبغ فكره من أوهام و خرافات خلال العصور الوسطى ، حيث تم شن حركات جريئة تصدى فيها العقل للأغلال التي أفسدته طويلا ، و تحدى فيها الفلاحون و عبيد الأرض و ساداتهم و ثاروا عليهم ، و تحدى فيها العامة رجال الدين ، و رفضوا سلطتهم ، بل و تحدى الملوك سلطة الكرسي البابوي و النظام الكنسي .[٦٣]

فعلى المستوى السوسيوثقافي يمكن القول أن التربية نسق شمولي من القيم والمقومات والمؤسَّسات والعلاقات والممارسات الاجتماعية المكرسة لمبادئ المواطنة، وحقوق وواجبات الأفراد والجماعات، والمساواة، والعدالة الاجتماعية، والحرية، والتسامح، وشرعية التعدد والاختلاف، والمشاركة في تداول السلطة والحكم واتخاذ القرار، وتدبير الشأن العام... وذلك بشكل تتكافأ وتترافَدُ فيه الفرص والحظوظ والمواقع والأدوار والمهام... وفق معايير عقلانية عادلة وسليمة، يُفْتَرَضُ أن تكون متوافقة من جهة مع شروط ومقومات مجتمع الحداثة والتقدم، ومنسجمة من جهة أخرى، مع خصوصيات

---

[٦٢] نفس المرجع ص ٣١

[٦٣] منى محمد علي جاد و السيد عبد القادر شريف :" تاريخ التربية و الاتجاهات المعاصرة " منشورات جامعة القاهرة سنة ٢٠٠١/٢٠٠٢ ص ٢١٧

النظام الاجتماعي القائم، بما يقوم عليه من رؤية للعالَم، ومن مشروع سوسيوحضاري عام[٦٤].

تعلمنا تجارب الكثير من المجتمعات أن التربية تشكل بوابة رئيسية لبناء وترسيخ مجتمع الحداثة و الديمقراطية . فالحداثة من حيث هي مناخ فكري وسوسيو- ثقافي سائد ومهيمن في المجتمعات المعاصرة إن هي إلا تتويج لسيرورة متراكمة من المعارف والتقنيات وطرائق وفنون وأساليب العيش والتعايش والحكامة السياسية للاجتماع البشري .و من جهة أخرى يمكن القول إن النسق التربوي هو أحد أنساق الضبط الاجتماعي، فالتربية هي التي تعيد تكوين المجتمعات و تضمن استمرارها ، كما تتيح الفرصة بأن تتجه قوى المعارضة بممارسة أشكال من التربية في مواجهة هيمنة القوى الحاكمة على مجريات الفكر و الثقافة و المجتمع [٦٥].

لا يمكننا أن ننكر أن الحداثة و ما بعد الحداثة قد ساهمتا في توجيه البحث العلمي وتطويره، في شخص المدرس ، فأصبح لزاما على هذا الأخير أن يتحاور مع العلم من جهة ، و مع العالم من جهة ثانية . فالعلم يتجه إلى وصف و تحليل و صياغة العلاقات الخارجية للظواهر كما يمكن صياغتها رياضيا ، و هذا يعني أن التجربة و القياس الرياضي للظواهر من أهم سمات العصر الحديث ، و هذا انعكس على البحث التربوي و ظل تأثيره سائدا إلى اليوم.

ويذهب البعض إلى تلخيص أهمية ومكانة الفعل التربوي في التحديث و التغيير :" ينبغي أن يظل -البعد التربوي- في عمق اهتمامات كل منظومة أو مؤسسة في المجتمع، وأن يشكل باستمرار المقياس الموضوعي الأول لمردوديتها وفعاليتها الاجتماعية، بغض النظر هنا عن تفاوت حجم الاهتمام التربوي بين منظومة أو مؤسسة وأخرى."[٦٦]

دون أن ننسى أن التحديث التربوي يقوم على أولوية إستراتيجية في توفير مناخ الحرية في الانفتاح الثقافي شكلا ومضمونا. فبغياب الحرية ،تختنق صور الإبداع الثقافي وتتجسد في ممارسة ثقافية هزيلة ،وقنوات تجارية الإنتاج الثقافي

---

[٦٤] مصطفى محسن " التربية والديمقراطية وتحديات التنمية والتحديث في عالم متغير: الراهن والرهانات" بحث منشور على شبكة الأنترنيت ص ٣

[٦٥] طلعت عبد الحميد فايق و عصام الدين علي هلال " قضايا في علم اجتماع التربية المعاصر " ،مكتبة الأنجلو المصرية ، ٢٠٠٢ ص ٤٧

[٦٦] الطيب برغوت " مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية التدافع و التجديد " مركز الراية للتنمية الفكرية، دمشق ٢٠٠٦ ، ص ٢٣٧

يحتاج إلى مؤسسات توفر الخدمة الثقافية في مختلف صورها المعرفية من مكتبات، ودعم للكتاب، في المسرح والسينما، والفرق الموسيقية والمعارض الفنية والمتاحف والمؤسسات الثقافية الأخرى ، [٦٧] .

يجب على النظام التربوي أن يكون مهيأ باستمرار للاستجابة لتحدي المستقبل ، إلا أن نظامنا التربوي العربي عاجز عن الارتقاء إلى مستوى التحديات التي تفرضها الثورة المعرفية و التقنية ، و تحديات العولمة ،مما يفرض الحاجة الملحة إلى التحديث في النظام التعليمي و عقلنته باستمرار [٦٨] ، حتى لا نتحول إلى أمة منقرضة أو ساكني كهوف في عالم لا يرحم الضعفاء و المهملين .

على الرغم من أن التربية في غالب الأحيان تتوقف على رؤية شاملة لطبيعة الإنسان و الكون و المجتمع إلا أن التربية في مجتمعنا يمكنها أن تؤسس لقيم الكونية و الحداثة من خلال الاستلهام النقدي للقيم العربية الأصيلة لا للتعامل مع الآليات الكونية [٦٩].

بعد هذا العرض لعلاقة الفلسفة ودورها في تنمية وترسيخ قيم العقل الحداثي، لا بد لنا من التحديد الدلالي و النظري للمفهوم العقل الحداثي، شروطه وحدداته، وهو ما سيتناوله الفصل الموالي .

---

[٦٧] حامد عمار " نحو تجديد تربوي ثقافي " مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ١٩٩٨ ، ص ١٢

[٦٨] محسن خضر :" مستقبل التعليم العربي بين الكارثة و الأمل " الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٨ ص ٢٥

[٦٩] طلعت عبد الحميد :" دليل إدارة الذات بالقيم "، مكتبة أنجلو المصرية ، القاهرة ٢٠١٥، ص ٣٢